الدراية
مجلة علمية محكمة
تصدرها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدسوق

صفات عباد الرحمن

كما تصورها سورة الفرقان

(دراسة موضوعية)

د/مصطفى أحمد محمد أحمد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠١٥/٦٨٤٤م

قال تعالى :

Z Ô Ó Ò Ñ Ð Î Í Ì Ë [

[سورة هود من الآية : ٨٨]

المقدمة

الحمد لله خالق الأكوان ، عظيم الشأن ، رافع عباد الـــرحمن ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الكريم المنان ، وأشـــهد أن محمدا عبده ورسوله المصطفى من بني عدنان صل اللهم وســـلم وبـــارك عليه وعلى آله ومن تبعه بإحسان. أما بعد .

فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعانا إلى تدبره وفهمه والعمل به ، وبيّن لنا في محكم التنزيل صفات عباد الرحمن التي هي المنهج الرباني الذي نزل به القرآن والرسول قام بتطبيق هذا المنهج وبلغه للناس ودعا إليه

فعباد الرحمن هم المثل الحية الواقعية التي أراد الإسلام تكوينها بمنهجه التربوي الخاص وهم المستحقون لنزول الرحمة، ولولا وجودهم لم يعبأ الله ﷻ أن يأخذ أهل الأرض في طرفة عين .

وقد قال الإمام القرطبي – رحمه الله -: وصف الله تعالى عباد الرحمن بإحدى عشرة خصلة هي أوصافهم الحميدة من التحلي، والتخلي وهي التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والبعد عن الشرك، والنزاهة عن الزنى والقتل، والتوبة، وتجنب الكذب، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله ، ثم بيّن جزاءهم الكريم وهو نيل الغرفة أي الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنّة وأفضلها أعلى مساكن الدنيا. (١)

(١) – **ينظر :** الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٨٣/١٣ ، ط: دار الكتب المصرية – القاهرة ، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م .

والحق أنهم اثنتي عشرة صفة من صفات عباد الرحمن، وزعت على أربعة أقسام:

القسم الأول: في تحليهم بالكمالات

والقسم الثاني: التخلي عن الضلالات

والقسم الثالث: الاستقامة على شرع الله

والقسم الرابع: تطلعهم إلى الزيادة من صلاح الحال .

وهذه الصفات الخُلُقية الاثنتي عشرة التي ذكرت لعباد الرحمن هي من أسس الأخلاق الإسلامية وهي ثمرة من ثمرات العقيدة الإسلامية والالتزام بها وتحويلها إلى سلوك ومنهج حياة وهذه الأخلاق حسب ورودها في الآيات الكريمة هي:

- التواضع، الحلم، التهجد، الخوف من الله، ترك الإسراف والتقتير، البعد عن الشرك، اجتناب القتل، النزاهة عن الزنى، التوبة، تجنب الكذب، قبول الموعظة، الابتهال إلى الله .(١)

ومن أهم الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع ما يلي :

١- بيان صفات عباد الرحمن التي هي المنهج الرباني الذي نزل به القرآن.

٢- دراسة صفات أفراد المجتمع الذي رسمه القرآن .

٣- الوقوف على المنهج التربوي الذي أراد الإسلام تكوينه ونشره .

(١) – **ينظر :** موسوعة التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم ٣١٧/٥ ، ط: كلية الدراسات العليا – جامعة الشارقة ، الطبعة الأولى ٢٠١٠ م .

خطة البحث

يتكون البحث من: مقدمة، ومبحثين ، وخاتمة ، وفهارس.

المقدمة وتشتمل على: أسباب اختيار الموضوع ، و خطة البحث.

المبحث الأول : التعريف بالسورة وفيه مطالب سبعة :

المطلب الأول: اسمها وسر التسمية .

المطلب الثاني : عدد آياتها وكلماتها وحروفها.

المطلب الثالث : ترتيب السورة حسب النزول وحسب المصحف الشريف .

المطلب الرابع : سورة الفرقان هل هي مكية أو مدنية ؟

المطلب الخامس : مقصود السورة الكريمة .

المطلب السادس: المناسبات في السورة وفيه.

أولا : المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة سورة النور.

ثانيا : المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها .

ثالثا : المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

المطلب السابع : محور سورة الفرقان.

المبحث الثاني : صفات عباد الرحمن

تمهيد .

الصفة الأولى : التواضع.

الصفة الثانية : الحلم.

الصفة الثالثة : قيام الليل.

الصفة الرابعة : الخوف من عذاب الله.

الصفة الخامسة : التوسط في الإنفاق.

الصفة السادسة : اجتناب الشرك بالله جل وعلا.

الصفة السابعة : اجتناب قتل النفس بغير حق.

الصفة الثامنة : الابتعاد عن الزنا ووسائله.

الصفة التاسعة : التوبـــــــــــــــة.

الصفة العاشرة : الابتعاد عن شهادة الزور وأماكن المعاصي.

الصفة الحادية عشرة : قبول المواعظ.

الصفة الثانية عشرة : الدعاء بصلاح الأزواج والذرية.

الخاتمة – أسأل الله حسنها – وقد تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها ، ثم أتبعتها بذكر فهرس المصادر والمراجع ، وفهرس موضوعات البحث.

وأسأله -سبحانه- أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم أن ألقاه] : ; > = < ? @ A B

Z G F E D C الشعراء: ٨٨ - ٨٩

د / مصطفى أحمد محمد أحمد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

المبحث الأول: التعريف بالسورة

المطلب الأول: اسمها وسر التسمية

السورة تسمى سورة الفرقان

وقد سميّت بهذا الاسم لأن الله تعالى ذكر فيه الكتاب المجيد الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ وكانت النعمة الكبرى على الإنسانية وهو الذي فرق الله تعالى به بين الحق والباطل والكفر والإيمان فاستحق هذا الكتاب العظيم أن يسمّى الفرقان وتسمى السورة بهذا الاسم تخليداً لهذا الكتاب الكريم.

والسورة تدور آياتها حول إثبات صدق القرآن وبيان سوء عاقبة المكذّبين به.

جاء في الصحيحين عن عُمَرَ بْنَ الخَطَّاب، (١) رضي الله عنه يقول : سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، (٢) يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ، فَإِذَا هُوَ يَقْرَؤُهَا عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ، لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكِدْتُ

---

(١) – **عمر بن الخطاب :** هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص: المتوفى : ٢٣ هـ ، ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، صاحب الفتوحات، يضرب بعدله المثل . أخباره كثيرة أفرد صاحب أشهر مشاهير الإسلام نحو ثلاث مائة صفحة لترجمته ، و كتب في سيرته مؤلفات منها : عمر بن الخطاب لابن الجوزي ، عبقرية عمر لعباس محمود العقاد ، الفاروق عمر لمحمد حسين هيكل، فصل الخطاب في سيرة ابن الخطاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لعلي محمد الصلابي. ينظر : أسد الغابة لابن الأثير ٨١٤/١ ، ط: دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٩٩٤ م ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ٣٥٤/١، ط :دار الجيل، بيروت ، الطبعة : الأولى ١٩٩٢ م ، الأعلام لخير الدين الزركلي ٤٦/٥ ، ط : دار العلم للملايين ، الطبعة: الخامسة عشر ٢٠٠٢ م .

(٢) – **هشام بن حكيم :** هو هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد القرشي الاسدي: صحابي ابن صحابي. أسلم يوم فتح مكة ، توفي بعد ١٥ هـ ، وَكَانَ من الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، وكَانَ عمر بن الخطاب يقول إذا بلغة أمر ينكره، أما ما بقيت أنا و هشام، فلا يكون ذلِكَ. **ينظر :** أسد الغابة ٣٧٢/٥ ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١٥٣٢/٤، الأعلام ٨٦/٨.

أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلاَةِ، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ لَهُ: كَذَبْتَ فَوَاللَّهِ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُوَ أَقْرَأَنِي هَذِهِ السُّورَةَ، الَّتِي سَمِعْتُكَ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقُودُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا، وَإِنَّكَ أَقْرَأْتَنِي سُورَةَ الفُرْقَانِ، فَقَالَ: «يَا هِشَامُ اقْرَأْهَا» فَقَرَأَهَا القِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ» ثُمَّ قَالَ: «اقْرَأْ يَا عُمَرُ» فَقَرَأْتُهَا الَّتِي أَقْرَأَنِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ» (١).

المطلب الثاني: عدد آياتها وكلماتها وحروفها

عدد آيات سورة الفرقان سبع وسبعون آية ليس فيها اختلاف ، وعدد كلماتها ثمانمائة واثنتان وسبعون كلمة وحروفها ثلاث آلاف وسبع مئة وثلاثة وثمانون حرفا. (٢)

(١) – أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن، باب من لم ير بأسا أن يقول: سورة البقرة، وسورة كذا وكذا ١٩٤/٦ ، حديث : ٥٠٤١ ، ط: دار طوق النجاة ـ الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ .

(٢) – **ينظر :** البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني صـ ١٩٤ ،ط :مركز المخطوطات والتراث – الكويت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م .

المطلب الثالث: ترتيب السورة حسب النزول وحسب المصحف الشريف

وهي السورة الثانية والأربعون في ترتيب النزول ، وهي السورة الخامسة والعشرون في ترتيب المصحف الشريف.

المطلب الرابع : سورة الفرقان هل هي مكية أو مدنية ؟

سورة الفرقان سورة مكية نزلت بعد سورة يس، ونزلت سورة يس بعد سورة الجن. وكان نزول سورة الجن عند رجوع النبي ﷺ من الطائف، وكان قد ذهب إليها سنة عشر من بعثته، فيكون نزول سورة الفرقان في السنة العاشرة من البعثة، وتكون من السور التي نزلت بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، وهي فترة تميزت بقسوة مشركي مكة وعنفهم ورغبتهم في القضاء على الدعوة الإسلامية بكل سبيل، ولذلك تبدو سورة الفرقان وكأنها إيناس لرسول الله ﷺ ، وتسرية له وتطمين وهو يواجه مشركي قريش، وعنادهم وتعنّتهم معه، وجدالهم بالباطل، ووقوفهم في وجه الهدى، وصدّهم عنه. (١)

المطلب الخامس: مقصود السورة الكريمة

إذا تأملنا مقصود السورة ومعظم ما اشتملت عليه نجد : المنة بإنزال القرآن، ومنشور رسالة سيد ولد عدنان، وتنزيه الحق تعالى من الولد، والشريك، وذم الأوثان، والشكاية من المشركين بطعنهم في المرسلين، بأكل الطعام في أخس مكان، واستدعائهم محالات المعجزات من الأنبياء

(١) – **ينظر :** الموسوعة القرآنية المتخصصة لجعفر شرف الدين ١٠٥/٦ ، ط: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤٢٠ هـ.

كل أوان، وذُل المشركين في العذاب والهوان، وعز المؤمنين في ثوابهم بفراديس الجنان، وخطاب الحق مع الملائكة في القيامة تهديدا لأهل الكفر والطغيان، وبشارة الملائكة للمجرمين بالعقوبة في النيران، وبطلان أعمال الكفار يوم ينصب الميزان، والإخبار بمقر المؤمنين في درجات الجنان، وانشقاق السماوات بحكم الهول وسياسة العبدان، والإخبار عن ندامة الظالمين يوم الهيبة ونطق الأركان، وذكر الترتيب والترتيل في نزول القرآن، وحكاية حال القرون الماضية، وتمثيل الكفار بالأنعام، أخس الحيوان، وتفضيل الأنعام عليهم في كل شان، وعجائب صنع الله في ضمن الظل والشمس وتخليق الليل، والنهار، والآفات، والأزمان، والمنة بإنزال الأمطار، وإنبات الأشجار في كل مكان، وذكر الحجة في المياه المختلفة في البحار، وذكر النسب، والصهر، في نوع الإنسان، وعجائب الكواكب، والبروج، ودور الفلك، وسير الشمس، والقمر، وتفصيل صفات العباد، وخواصهم بالتواضع، وحكم قيام الليل، والاستعاذة من النيران، وذكر الإقتار، والاقتصاد في النفقة، والاحتراز من الشرك والزنى وقتل النفس بالظلم والعدوان، والإقبال على التوبة، والإعراض عن اللغو، والزور، والوعد بالغرف للصابرين على عبادة الرحمن، وبيان أن الحكمة في تخليق الخلق التضرع والدعاء والابتهال إلى الله الكريم المنان [١].

المطلب السادس: المناسبات في السورة

أولا: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة سورة النور:

(١) – **ينظر :** بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي ٣٤١/١ ، ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ١٩٩٦ م .

أنه لما ذكر وجوب مبايعة المؤمنين للرسول، وأنهم إذا كانوا معه في أمر مهم، توقف انفصال واحد منهم على إذنه، وحذر من يخالف أمره، وذكر أن له ملك السماوات والأرض، وأنه تعالى عالم بما هم عليه، ومجازيهم على ذلك، فكان ذلك غاية في التحذير والإنذار. ناسب أن يفتتح هذه السورة بأنه تعالى، متره في صفاته عن النقائص، كثير الخير. ومن خيره أنه نزل الفرقان على رسوله منذرًا لهم، فكان في ذلك إطماع في خيره، وتحذير من عقابه. (١)

وقال الإمام المراغي- رحمه الله - : مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه:

١ - أنه سبحانه اختتم السورة السابقة، بكونه مالكًا لما في السماوات والأرض، مصرفًا له على ما تقتضيه الحكمة البالغة، والمصلحة العامة مع النظام البديع، والوضع الأنيق وأنه سيحاسب عباده يوم القيامة على ما قدموا من العمل خيرًا كان أو شرًا. وافتتح هذه بما يدل على تعاليه في ذاته وصفاته، وأفعاله، وعلى حبه لخير عباده بإنزال القرآن لهم هاديًا، وسراجًا، منيرًا.

٢ - اختتم السورة السالفة، بوجوب متابعة المؤمنين للرسول - صلى الله عليه وسلم - مع مدحهم على ذلك، وتحذيرهم من مخالفة أمره خوف الفتنة، والعذاب الأليم، وافتتح هذه بمدح الرسول، وإنزال الكتاب عليه، لإرشادهم إلى سبيل الرشاد وذم الجاحدين لنبوته، بقولهم: إنه رجل

(١) – **ينظر :** تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧٩/٨ ، ط: دار الفكر – بيروت - ١٤٢٠ هـ .

مسحور، وإنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق إلى آخر ما قالوا.

٣ - في كل من السورتين وصف السحاب، وإنزال الأمطار، وإحياء الأرض فقال في السالفة: (Î Í Ì Ë Ê ÉÈÇÆ) النور:٤٣ إلخ. وقال في هذه: ('] \ [Z Y X W V) الفرقان:٤٨ إلخ.

٤ - ذكر في كل منهما، وصف أعمال الكافرين يوم القيامة، وأنها لا تجزيهم فتيلًا ولا قطميرًا، فقال في الأولى: (I H G F M L K J) النور:٣٩ إلخ. وقال في هذه: (DC B K J I H G F E) الفرقان:٢٣

٥ - وصف النشأة الأولى للإنسان في أثنائهما. فقال في الأولى: (. / 2 1 0 |) النور:٤٥ وفي الثانية: (¾ ¿ À Á Â Ã Ä Å Æ |) الفرقان:٥٤.[1]

ومن خلال هذا يتبين توقير رسول الله وتعظيمه في خاتمة سورة النور و افتتاحية سورة الفرقان .

ثانيا: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها :

أ - الحديث عن المعبود بحق وعن الآلهة المزيفة، في افتتاحية سورة الفرقان والخاتمة

(١) – **ينظر :** تفسير المراغي لأحمد المراغي ١٤٥/١٨ ،ط: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي – مصر ، الطبعة: الأولى ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .

ففي الافتتاحية في قوله تعالى : (¯ ° ± ² ³

´ µ ¶ ¸ ¹ º » ¼ ½ ¾ ¿ À Á

Â Ã) الفرقان:٢

أما الحديث عن الآلهة المزيفة العاجزة فجاء في قوله تعالي (! "

$ % & ' ( ) * + , - .

/ 0 1 2 3 4 5 6 7) الفرقان:٣ فالإله الحق يتفرد بالملك والتدبير والتقدير، أما آلهتهم المزيفة فلا تملك دفع الضر عن نفسها ولا تهب الحياة فكيف تتخذ آلهة من دون الله تعالى .

وجاء الحديث عن المعبود بحق في خاتمة السورة بالثناء على عابديه، قال تعالى: (! " # $% & ') الفرقان:٦٨

وجاء الحديث عن المعبود الباطل في خاتمة السورة بالوعيد على عابديه في قوله تعالى: (3 4 5 6 7 8 9 : ; < =

> ? @ A) الفرقان:٦٨-٦٩

ب-الحديث عن اليوم الآخر في الافتتاحية والخاتمة

ففي الافتتاحية في قوله تعالى: (* + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7) الفرقان:٣

والحديث عن اليوم الآخر في الخاتمة في قوله تعالى: (3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ A)

الفرقان:٦٨-٦٩

ثالثا : المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

السورة تسمى سورة الفرقان، ومحور السورة هو إثبات صدق رسول الله –صلى الله عليه وسلم - من خلال القرآن الكريم المعجزة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فوجوه إعجاز القرآن الرئيسية الأربعة موجودة في السورة:

-فالإعجاز البياني من خلال نظمه (Á Â Ã Ä Å Æ Ç) الفرقان: ٣٢ (Ò Ñ Ð Ï Î Í Ì Ë É È)

- والإعجاز العلمي في أسرار مخلوقاته (« ¬ ® ¯ ° ±) الفرقان:٥٣ (½ ¼ » º ¹ ¸ ¶ µ ´ ³ ²)

-والإعجاز الغيبي بذكر أخبار الأنبياء والأمم السابقة كما في قوله تعالى (6 7 8 9 : ; < = > ?) الفرقان: ٣٥ ، (J K L M N O) الفرقان: ٣٧ ،

(a ` _ ^] \ [Z Y) الفرقان:٣٨ ،

(r q p o n m l k ا) الفرقان:٤٠

- والإعجاز التشريعي بذكر الهدايات القرآنية في العقائد وأصول التشريع والأخلاق كما في صفات عباد الرحمن .

فالمناسبة بين اسم السورة الفرقان وهو المعجزة والمحور الذي يثبت صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم - من خلال هذه السورة بذكر أوجه إعجازه جلية واضحة . (١)

المطلب السابع :محور سورة الفرقان

تقدم في ثنايا الحديث عن المناسبات أن محور سورة الفرقان هو القرآن باعتباره معجزة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ودليل صدقه .

ووفق المنهج المتبع عادة للتعرف على محور السورة وهو التعرف على المحور من خلال اسم السورة، أو من خلال المناسبات في السورة، أو من خلال المرحلة الزمنية لنزول السورة، أو من خلال القضايا المعروضة في السورة لو طبقنا هذا المنهج على سورة الفرقان للتعرف على محورها لوجدناه الاستدلال على صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم - من خلال معجزة القرآن (٢).

(١) – **ينظر :** موسوعة التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم ٢٦٨/٥.

(٢) – **ينظر :** موسوعة التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم ٢٦٤/٥.

المبحث الثاني: صفات عباد الرحمن

تمهيد

قال تعالى (وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾) [سورة الفرقان:٦٣]

فالقرآن الكريم يبدأ الحديث عن عباد الرحمن بصفة العبودية (وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ) [سورة الفرقان:٦٣] فهم أفاضل العباد ، فالإضافة للتخصيص والتفضيل ، وإلا فالخلق كلهم عباد الله . (١)

ولهذا أوثر التعبير بالعباد دون العبيد مع أن العباد والعبيد بمعنى واحد إلا أن العباد يستعمل في مواضع التنويه ، فقد سمي قوم من عبد القيس العباد ؛ لأن كسرى ملكهم دون العرب . (٢)

وأضافهم الله إليه رفعة لهم ، بل وأضافهم إلى صفة وصف الرحمة الأبلغ الذي أنكره أولئك تبشيراً لهم(٣)

وإضافتهم إلى الرحمن دوي غيره من أسمائه تعالى وضمائره عز وجل لتخصيصهم برحمته أو لتفضيلهم على من عداهم لكونهم مرحومين منعماً عليهم كما يفهم من فحوى الإضافة إلى مشتق . (٤)

---

(١) – **ينظر :** تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٥٤٧/٢ ، ط:دار الكلم الطيب- بيروت ، الطبعة: الأولى ١٩٩٨ م .

(٢) – **ينظر :** تفسير المحرر الوجيز لابن عطية ٢١٨/٤ ، ط:دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ هـ .

(٣) – **ينظر :** نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٤٢٠/١٣ – ط :دار الكتاب الإسلامي - القاهرة ، بدون تاريخ .

(٤) – **ينظر :** تفسير روح المعاني للآلوسي ٤٣/١٠ ، ط: دار الكتب العلمية – بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .

فهذه لوحة قرآنية رسمت فيها صفات عباد الرحمن، وضّح الله فيها معالمهم وصفاتهم، وجعلهم أنموذجًا يقتدَى بهم ويتأسّى بهم. فهم المنسوبون إلى الله وحده، فكما أن هناك عبادًا للشيطان وللطاغوت وللشهوات، فإن هناك عبادًا لله، وكما أن هناك عبادًا للدنيا والنساء، فإن هناك عبيدًا لله وحده.

هؤلاء العباد الذين يئس الشيطان من أن يغويَهم أو يجد منفذًا للسيطرة عليهم،فقدأقسم كماقال جل وعلا (ë ê é è) [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى: (ñ ð ï î í ì) [الحجر: ٤٢]، (s r q p o n m l k j u t).

وعلى أي فهذا كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف صالحي عباد الله سبحانه وأحوالهم الدنيوية والأخروية بعد بيان حال المنافقين.

مناسبة الآية:

لما تجاهل المشركون الرحمن ، واستكبروا عن السجود له ، عرفهم القرآن بالرحمن : بخلقه ، وتدبيره وإنعامه ، كما مضى في الآيات المتقدمة على صفات عباد الرحمن.

ثم عرفهم بعباده الذين عرفوه بذلك ، فآمنوا به وخضعوا له . بما اشتملت عليه هذه الآيات من صفاتهم .

ووجه آخر في المناسبة ، وهو أنه لما ذكر التذاكر والشكر في الليل والنهار في الآية المتقدمة ، ذكر صفات المتذكرين الشاكرين ، وما أثمره

لهم تذكرهم وشكرهم ، ترغيبا في التذكر والشكر . (١)

الصفة الأولى: التواضع

قال تعالى (ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا) [سورة الفرقان:٦٣]

إذا تأملنا صفة المشي نجد أن لها عند الله قيمة؛ لأنها تعبر عما في الإنسان من مشاعر وأخلاق، فالمتكبرون والمتجبرون لهم مشية، والمتواضعون لهم مشية، كل يمشي معبرًا عما في ذاته.

عباد الرحمن يمشون على الأرض هونًا متواضعين هيّنين ليّنين، يمشون بسكينةٍ ووقار بلا تجبر واستكبار، ولا يستعلون على أحد من عباد الله. عباد الرحمن يمشون مشية من يعلم أنه من الأرض خرج وإلى الأرض يعود، (۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ۝٥٥) [سورة طه:٥٥]

ليس معنى يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا أنهم يمشون متماوتين منكسي الرؤوس كما يفهم بعض الناس، فهذا رسول الله كان أسرع الناس مشيةً وأحسنها وأسكنها،فعن أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: " مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -، كَأَنَّمَا تُطْوَى لَهُ الْأَرْضُ، إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ

(١) – **ينظر :** مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير لابن باديس صـ ١٩٢، ط: دار الكتب العلمية – بيروت - الطبعة: الأولى ١٤١٦ هـ -١٩٩٥ م .

لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ(١)

حتى روي عن عمر أنه رأى شابًا يمشي رُويدًا ، فقال : ما بالك ؟ أأنت مريض ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . فعلاه بالدرة ، وأمره أن يمشي بقوة . (٢)

وقد نهى القرآن عن مشي المرح والبطر والفخر والاختيال، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٣٧]

وهذا لقمان يوصي ابنه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة لقمان:١٨]

لا تُمِلْ وجهك عن الناس إذا كلَّمتهم أو كلموك؛ احتقارًا منك لهم واستكبارًا عليهم، ولا تمش في الأرض بين الناس مختالا متبخترًا، إنّ الله لا يحب كل متكبر متباهٍ في نفسه وهيئته وقوله، ولا تكلّم الناس وأنت معرض عنهم، بل أقبل عليهم بوجهك وتواضَع وابتسم، فالابتسامة صدقة، والله لا يحب كل مختالٍ فخور، المختال الذي يُظهر أثر الكبر في أفعاله، والفخور الذي يظهر أثر الكبر في أقواله، والله يحب المتواضع الذي يعرف قدر نفسه، ولا يحتقر أحدًا من الناس.

---

(١) – **ينظر :** مسند أحمد ٥٠٦/١٤ حديث : ٨٩٤٣ ، ط: مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، وأخرجه الترمذي في سننه ٥/ ٦٠٤، كتاب المناقب ، باب في صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- ، الحديث ٣٦٤٨ وقال: هذا حديث غريب، ط: مصطفى البابي الحلبي – مصر ، الطبعة: الثانية، ١٩٧٥ م .

(٢) – **ينظر :** تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٢٢/٦ ، ط: دار طيبة للنشر ، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

إذًا علام يتكبر الناس؟! علام يتميّزون؟! علام يستعلون على عباد الله بأموالهم ومناصبهم؟! ولو نظروا إلى أنفسهم لوجدوا أن أباهم الماء المهين وجدّهم التراب، كماقال تعالى: (z | x w v u t { | } ~ • ¡ ¢ £ ¤ ¥ ¦ § ¨ ©) [السجدة: ٧، ٨].

وقد رأى بعضهم أحد الأمراء يمشي متبخترًا فنهاه، وقال: هذه مشيةٌ يبغضها الله تعالى، فقال له: أما تعرفني؟! قال: نعم أعرفك وأعرف من أنت، أنت الذي أوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفةُ قذِره، وأنت مع ذلك تحمل العذرة، فيا عجبًا ممن خرج من مجرى البول مرتين كيف يتكبر؟! (١)

واختلف في معنى هونا على أقوال:

أحدها : علماء وكلماء.

الثاني : أعفاء أتقياء .

الثالث : بالسكينة والوقار .

الرابع : متواضعين لا يتكبرون. (٢)

فهم يمشون على الأرض حلماء متواضعين ، يمشون في اقتصاد . والقصد والتؤدة وحسن السمت من أخلاق النبوة.

وهذه كلها معان متقاربة ، ويجمعها العلم بالله والخوف منه ،

---

(١) – **ينظر :** تفسير الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٢٩٥/١٨ .

(٢) – **ينظر :** تفسير النكت والعيون للماوردي ١٥٤/٤ ، ط:دار الكتب العلمية - بيروت، بدون تاريخ .

والمعرفة بأحكامه والخشية من عذابه وعقابه ، جعلنا الله منهم بفضله ومنه .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيه كأنما يمشي في صبب[١] . وهو عليه السلام الصدر في هذه الآية ،

وقال الزهري : سرعة المشي تذهب ببهاء الوجه ، يريد الإسراع الخفيف لأنه يخل بالوقار والخير في التوسط .

وقال زيد بن أسلم : أنه رأى في النوم من فسر له : الذين يمشون على الأرض هوناً ، بأنهم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض .

وقال عياض بن موسى : كان عليه السلام يرفع في مشيه رجليه بسرعة وعَدْوٍ خطوة خلاف مشية المختال ، ويقصد سمته وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة كما قال : « إنما ينحط من صبب » وكان عمر يسرع جبلة لا تكلفاً[٢].

الصفة الثانية: الحلم[٣]

قال تعالى (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾) [سورة الفرقان:٦٣]

إذا تأملنا هذه الصفة نجد أن أصحابها لا ينفعلون مع من يثيرونهم

(١) – يعني : ينحدر من الأرض وأصله النزول من علو إلى أسفل، ومنه صببت الماء والمراد أنه لا إسراع في مشيته ولا إبطاء وخير الأمور أوسطها . ينظر : التنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني ٢٩١/٨ ، ط: مكتبة دار السلام، الرياض ، الطبعة: الأولى ٢٠١١ م .

(٢) – **ينظر :** تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي١٢٦/٨، ط:دار الكتب العلمية بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠١ م .

(٣) – **الحلم :** الحلم ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب . **ينظر :** المفردات في غريب القرآن صـ ٢٥٣ ، ط:دار القلم، الدار الشامية – دمشق ، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.

بالكلام القاسي ، من مواقع ردّ الفعل ،

فهم يردون ردا لطيفاً حاسماً ، وإذا لاحظوا أن الجاهلين يتحركون في كلامهم من مواقع الجهل الذي يتعمد الإثارة ، ليخلق مشكلة ، أو يثير فتنةً ، أعرضوا عن الردّ المباشر وكانت روح السلام الذي يتفادى المشكلة والفتنة والإثارة ، وهذه هي الطريقة الحكيمة التي يواجهون بها خطاب الجاهلين .

إذا تعرض المؤمن لسفاهة الجهلاء لم يقابلها بالمثل ولم ينزل إلى دركتهم، كما أخبر القرآن عنهم في آية أخرى، قال تعالى: (O N M L K J I H G F E D C B A @ ? > = < ; : 9 8 7 6 5 4 3 2 1 0 / . - , + *) [القصص:٥٥]

فهم يردون على من تطاول عليهم بقولهم سلاما ، وهذا يدل على حلمهم ولينهم وهو داخل في شدة تواضعهم يدل عليه السياق القرآني بواو العطف دون الذين

ولم يقل: والذين كبقية المعطوفات، لأن الخصلتين كشيء واحد من حيث رجوعهما إلى التواضع (١)

فقرن وصفهم بالتواضع في سمتهم وهو المشي على الأرض هونا بوصف آخر يناسب التواضع وكراهية التطاول وهو متاركة الذين يجهلون عليهم في الخطاب بالأذى والشتم وهؤلاء الجاهلون يومئذ هم المشركون إذ كانوا يتعرضون للمسلمين بالأذى والشتم فعلمهم الله

(١) – **ينظر :** نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٤٢١/١٣ .

متاركة السفهاء، فالجهل هنا ضد الحلم، وذلك أشهر إطلاقاته عند العرب قبل الإسلام وذلك معلوم في كثير من الشعر والنثر.

وذكرهم بصفة الجاهلين دون غيرها مما هو أشد مذمة مثل الكافرين لأن هذا الوصف يشعر بأن الخطاب الصادر منهم خطاب الجهالة والجفوة. (١)

والتعبير بـــــ إذا دون إن لقضاء العادة بتحقق مدخولها فإذا تستعمل في تحقق الوقوع ، فالسفه واقع فتعامل معه كما أخبرت إذا خاطبك الجاهل، فحذار أن تكون مثله في الردِّ عليه فتَسْفَه عليه كما سَفِهَ عليك، بل قرِّعه بأدب وقُلْ :سَلاَماً لتُشعِره بالفرق بينكما. (٢)

وما أجملَ ما قاله الإمام الشافعي في هذا المعنى:

إذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تُجبْهُ ... فَخَيْر مِنْ إجَابتهِ السُّكُوتُ

فإنْ كلَّمتَه فرجتَ عَنْه ... وَإنْ خلَّيْته كَمَداً يُمُوتُ (٣)

فهم لا ينطلقون مع الناس الذين يثيرونهم بالكلام بل يردون ردا لطيفاً حاسماً ، وإذا لاحظوا أن الجاهلين يتحركون في كلامهم من مواقع الجهل الذي يتعمد الإثارة ، ليخلق مشكلة ، أو يثير فتنةً ، أعرضوا عن الردّ المباشر وكانت روح السلام الذي يتفادى المشكلة والفتنة والإثارة ، هي موقفهم ومنطقهم .

---

(١) – **ينظر :** التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٦٩/١٩ ، ط: الدار التونسية للنشر – تونس – ١٩٨٤م .

(٢) – **ينظر :** تفسير الشعراوي ١٠٥٠٣/١٧ ، ط: مطابع أخبار اليوم : ١٩٩٧ م .

(٣) – **ينظر :** مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي لأحمد قشب ٥٩/٥ ، ط: دار الرشيد ، الطبعة الثالثة – ١٩٨٥ م .

واختلف في المعنى على أقوال :

الأول :معناه لا نجاهلكم ولا خير بيننا ولا شر أي نسلم منكم تسليما، فأقيم السلام مقام التسليم

الثاني : يحتمل أن يكون مرادهم طلب السلامة والسكوت.

الثالث : يحتمل أن يكون المراد التنبيه على سوء طريقتهم لكي يمتنعوا.

الرابع : يحتمل أن يكون مرادهم العدول عن طريق المعاملة.

الخامس : يحتمل أن يكون المراد إظهار الحلم في مقابلة الجهل، قال الأصم: قالوا سلاما أي سلام توديع لا تحية. (١)

والحق أن الآية تحتمل كل هذا

وبهذا يؤسس القرآن للقضاء على الأحقاد والأضغان في المجتمع بقاعدة سامية عظيمة ألا وهي : رد السيئة بالحسنة

فإذا أساء إنسان إلى آخر فعلى من أسئ إليه أن يقدم حسنة بدل الإساءة ، وهذا يعتبر علاجا لأدواء المجتمع التي عجز الكثير عن علاجها.

الصفة الثالثة: قيام الليل

قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الفرقان: ٦٤]

بعد ذكر معاملتهم لأنفسهم ولغيرهم، ذكر تعاملهم مع خالقهم جل وعلا، وخص قيام الليل بالذكر؛ لأنه أبعد عن الرياء، وأشد أثراً في

(١) – **ينظر :** تفسير مفاتيح الغيب للرازي ٤٨١/٢٤ ، ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ

تهذيب النفس كما أخبر المولى عن ذلك ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦﴾ [سورة المزمل:٦] ،

والتعبير يبرز من الصلاة السجود والقيام لتصوير حركة عباد الرحمن ، في جنح الليل والناس نيام . فهؤلاء قوم يبيتون لربهم سجدا وقياما ، يتوجهون لربهم وحده ، ويقومون له وحده ، ويسجدون له وحده . هؤلاء قوم مشغولون عن النوم المريح اللذيذ ، بما هو أروح منه وأمتع ، مشغولون بالتوجه إلى ربهم ، وتعليق أرواحهم وجوارحهم به ، ينام الناس وهم قائمون ساجدون ؛ ويخلد الناس إلى الأرض وهم يتطلعون إلى عرش الرحمن ، ذي الجلال والإكرام[١] ،

وسياق العطف يدل على أنهم قد بلغوا منزلة الكمال ، وذكر هذه المعطوفات التي هي صفات بالواو، تنبيهاً على أن كل واحدة منها تستقل بالقصد لعظم خطرها، وكبير أثرها[٢].

وإعادة الموصول لتأكيد أنهم يُعرفون بهذه الصلة[٣].

وخص البيتوتة لأن العبادة بالليل أشق وأبعد من الرياء وأوفق للقلب باللسان ولأن النهار خص لنوع آخر من العبادة وهو أنهم يجاهدون في سبيل الله لا يخافون في الله لومة لائم ويصاحبون خيار الناس للتعليم

(١) – **ينظر :** تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب ٢٥٧٨/٥ ، ط:دار الشروق – بيروت ، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ .

(٢) – **ينظر :** نظم الدرر ٤٢٢/١٣.

(٣) – **ينظر :** التحرير والتنوير ٧٠/١٩ .

والتعلم والإرشاد والاسترشاد[١] ،

وتقديم الجار لربهم لإفادة تخصيص عبادتهم وإخلاصهم وإشارة إلى الإخلاص في أدائها وابتغاء وجهه الكريم ، لما أن ذلك هو الذي يستتبع أثرها من العمل الصالح وفعل الخير وحفظ حدود الله[٢] ،

وقدم السجود على القيام لأنه أشد أركان الصلاة تقرباً إلى الله ، لكونه أنهى الخضوع ، وأتبعه ما هو تلوه في المشقة تحقيقاً لأن السجود على حقيقته فيتمحص الفعلان للصلاة [٣] ،

والسجود من أفضل العبادات، كما دل على ذلك الحديث الذي رواه ربيعة بن كعب [٤] رضي الله عنه قال: كنت كل ليلة آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوئه فجئته بوضوئه ذات ليلة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: سل يا ربيعة! فقال ربيعة: قلت: يا رسول الله. أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك يا ربيعة؟! قال: قلت: هو ذاك يا رسول الله! قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود [٥].

فعباد الرحمن يقضون الليل ساجدين وقائمين لله عز و جل ، في هذه اللحظات التي تجد فيها ذلك الإنسان لا سيما في جوف الليل الآخر

---

(١) – **ينظر :** تفسير المظهري لمحمد ثناء الله المظهري ٤٦/٧ ، ط: مكتبة الرشدية – الباكستان ، ١٤١٢ هـ.

(٢) – **ينظر :** تفسير محاسن التأويل للقاسمي ٤٣٦/٧ ، ط: دار الكتب العلميه – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

(٣) – **ينظر :** نظم الدرر ٤٢٢/١٣.

(٤) – **ربيعة بن كعب :** هو ربيعة بن كعب الأسلمي، أبو فراس، حجازي، كان خادماً للنبي صلى الله عليه وسلم وكان من اهل الصفة، توفي سنة : ٦٣ هـ . **ينظر :** الاستيعاب لابن عبد البر ٥٥/٢ .

(٥) – أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الصلاة - باب: فضل السجود والحث عليه: ٥٢/٢ ، حديث :١١٢٢، ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت - بدون تاريخ.

حينما يترل ربنا جل وعلا إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر ويقول:

من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له (١)

تجد ذلك الإنسان فيها راكعاً وساجداً بين يدي الله جل وعلا ، وعلى العكس تجد أقواماً ما زالوا مكبين على المعصية وعلى البعد عن الله جل وعلا حتى في جوف الليل الآخر الذي يترل فيه ربنا إلى سماء الدنيا، إذا هناك فرق بعيد بين عباد الله جل وعلا وعباد الشهوات وعباد المعاصي والهوى والشيطان.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعلم الناس يخلو ذاكرا ربَّه، كلما سنحت له فرصةٌ يتعبَّد لخالقه ، فإذا جاء الليل وأرخى سدوله توجَّه إلى معبوده عز وجل، ينادي ، يدعو، يتضرع بين يديه قائماً وقاعداً وساجداً ،يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه حتى يكاد الليل أن ينجلي وهو لم يشعر بطول القيام، وكيف له أن يشعر بذلك، وهو خالٍ بالله تعالى، خالٍ بملك الملوك، مستأنسٌ بمناجاته، متلذِّذ بعبادته، مقبلٌ عليه بقلبه وجسده.

l k j i h g f e d)
{ z y x w v u t s r q p o n m
(} |

[السجدة:١٦-١٧]

يقول الحسن البصري رحمه الله عن سلف الأمة: "لقد صحبتُ

(١) – أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل: ٥٣/٢ ، حديث :١١٤٥.

أقواماً يبيتون لربهم سجداً وقياماً، يقومون هذا الليل على أطرافهم، تسيل دموعهم على خدُودهم، فمرة رُكعاً، ومرةً سجَّداً، يناجون ربَّهم في فكاك رقابهم، لم يملّوا طول السهر لِما خالط قلوبهم من حسن الرجاء، فأصبح القوم مما أصابوا من النصب لله في أبدانهم فرحين، وبما يَأملون من حسن ثوابهم مستبشرين، فرحم الله امرأ نافسهم، ولم يرض لنفسه من نفسه بالتقصير في أمره واليسير من فعله، فإن الدنيا عن أهلها منقطعة، والأعمال على أهلها مردودة ، قيل للحسن البصري رحمه الله: ما بال المتهجّدين من أحسن الناس وجوها؟! قال: "لأنهم خلوا بالرحمن ففاض عليهم من نوره[١] ،

و من عجيب أمر قيام الليل أن الله افترضه على المسلمين اثني عشر شهرًا كاملة بادئ الأمر، ينصبون فيها أقدامهم نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه، وهي مدة طويلة، ولكنها ضرورية، ضرورية لحمل هذه الأمانة، وتحمل مشقة المسيرة، والتكفل بحمل الدعوة على الأكتاف، حتى أنجبت هذه الفترة فرسانا من الصحابة كلهم ربيب مدرسة التهجد وقيام الليل.

إن على أبناء الأمة أن يتوقفوا طويلاً أمام تلك السورة التي ربط الله تعالى فيها ما بين نصب الأقدام في الليل ونصب الأقدام بالدعوة ومواجهة الظلم والطغيان في النهار؛ قال -عز وجل(**! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6**

(١) – **ينظر :** مختصر قيام الليل للمروزي صـ ٥٨،ط: عالم الكتب ، الطبعة : الثالثة ١٩٨٣م. بتصرف يسير .

7 8 9 : ;) [المزمل:١-٥]

المنهج الإسلامي منهج عبادة، والعبادة فيه ذات أسرار، ومن أسرارها أنها زاد الطريق، ومدد الروح، وجلاء القلب ، والله سبحانه حينما كلف نبيه محمدًا -صلى الله عليه وسلم- للدور الكبير الشاق الثقيل، فكان الإعداد للقول الثقيل، والتكليف الشاق، والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن، إنها العبادة التي تفتح القلب، وتوثق الصلة، وتيسر الأمر، وتشرق بالنور، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان.

بكى أبو سليمان [١] يومًا فقيل له: ما يبكيك؟! قال: "ويحك -يا أحمد-!! كيف لا أبكي وقد بلغني أنه إذا جن الليل، وهدأت العيون، وخلا كل خليل بخليله، واستنارت قلوب العارفين، وارتفعت هممهم إلى ذي العرش، وافترش أهل المحبة أقدامهم بين يدي مليكهم في مناجاته، ورددوا كلامه بأصوات محزونة، جرت دموعهم على خدودهم، وتقطرت في محاريبهم خوفًا واشتياقًا، فأشرف عليهم الجليل -جل جلاله- فنظر إليهم، فأمدهم مهابة وسرورًا، وقال: يا جبريل: نادِ فيهم: ما هذا البكاء الذي أسمع؟! وما هذا التضرع الذي أرى منكم؟! هل سمعتم أو أخبركم عني أحد أن حبيبًا يعذب أحباءه؟! أو ما علمتم أني كريم؟! فكيف لا أرضى؟! أيشبه كرمي أن أرد قومًا قصدوني؟! أم كيف

(١) – **أبو سليمان الداراني :** هو الإمام الكبير زاهد العصر عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي، أبو سليمان المتوفى : ٢١٥ هـ ،كان من كبار المتصوفين. له أخبار في الزهد . ينظر : سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٢٦/٨ ، ط: دار الحديث- القاهرة ٢٠٠٦ م ، الأعلام ٢٩٣/٣ .

أذل قومًا تعززوا بي؟! أم كيف أحجب غدًا أقوامًا آثروني على جميع خلقي وعلى أنفسهم وتنعموا بذكري؟! فبي حلفت لأبعدن الوحشة عن قلوبهم، ولأكونن أنيسهم إلى أن يلقوني، فإذا قدموا عليّ يوم القيامة فإن أول هديتي إليهم أن أكشف لهم عن وجهي حتى ينظروا إليّ وأنظر إليهم، ثم لهم عندي ما لا يعلمه غيري!!".

ثم قال الداراني: "يا أحمد: إن فاتني ما ذكرت لك فيحق لي أن أبكي دمًا بعد الدموع".(١)

الصفة الرابعة: الخوف من عذاب الله

قال تعالى (¶ ¸ ¹ º » ¼ ½ ¿ À

Á Â Ã Ä Å Æ Ç È) [الفرقان:٦٥-٦٦]

بالرغم من خوفهم من الله جل وعلا وعبادتهم الطويلة لله جل وعلا يهجرون المنام ؛ لأنهم يخافون من الآخرة ، يخافون من النار، فالمؤمن يعيش بين الخوف والرجاء، فمع خشوعهم وقيامهم بالليل يخشون ربهم أن يردها عليهم، ويتهمون أنفسهم بعد أدائها على الوجه الأكمل بعدم صدق النية و الإخلاص فيها لله تعالى .

(١) – **ينظر :** رهبان الليل لسيد حسين العفاني صـ ٥٢٠ ، ط: ابن تيمية – القاهرة ، الطبعة : الثانية ١٩٩٣ م .

فلما ذكر تهذيبهم لأنفسهم للخلق والخالق ، أشار إلى أنه لا إعجاب عندهم ، بل هم وجلون [Z w v u t s r q][المعارج: ٢٧] وأن الحامل لهم على ذلك الإيمان بالآخرة التي كذب بها الجاهلون(١).

وقدموا الدعاء بالنجاة اهتماماً بدرء المفسدة ، وإشعاراً بأنهم مستحقون لذلك وإن اجتهدوا ، لتقصيرهم عن أن يقدروه سبحانه حق قدره(٢) ،

وجملة : إنها ساءت مؤكدة لمضمون الجملة قبلها مع اختلاف في المعنى : فإن ما أفادته الأولى من فداحة عذابها وملازمته ، أكدته الثانية بما أفاده من مقامه مستقرها ، ففصلت عنها لما بينهما من كمال الاتصال(٣) نظير : ذلك الكتاب لا ريب فيه .

والتأكيد فيها بأن ، لأنه لوح وأشير في الكلام السابق إلى هذا الخبر ، وشأن السامع لهذا أن يستشرف له استشراف المتردد الطالب ، فيتزل منزلة المتردد فيؤكد له الخبر ، ووجه التلويح بهذا الخبر : أنه لما سئل صرف عذاب جهنم كان هذا مشيرا إلى قبح هذا العذاب وشدته . فهذا نظير (ä ã â ì à ß Þ Ý Ü) [هود: ٣٧] (٤) ،

المؤمن يعيش بين الخوف والرجاء، فمع خشوعهم وقيامهم بالليل

---

(١) – **ينظر :** نظم الدرر ٤٢٣/١٣ ، بتصرف يسير .

(٢) – **ينظر :** المرجع السابق ٤٢٣/١٣ .

(٣) – **كمال الاتصال :** وهو اتحاد الجملتين اتحادا تاما، بحيث تكون الجملة الثانية: توكيدا للأولى، أو لا بد منها، أو بيانا لها. **ينظر :** علوم البلاغة لمحمد قاسم صـ ٣٥٢ ، ط: المؤسسة الحديثة للكتاب - لبنان ، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣ م .

(٤) – **ينظر :** مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير لابن باديس صـ ٢٠٠ .

يخشون ربهم أن يردها عليهم، ويتهمون أنفسهم بعد أدائها على الوجه الأكمل بعدم صدق النية والإخلاص فيها لله تعالى . يقول عز من قائل

(+ *) (' & % $ # " !)

[المؤمنون:٦٠]

قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أهو الذي يزني، ويسرق، ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ فقال لها: لا يا بنت الصديق ، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل(١)،

فهم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله ، مبتهلون الى الله في صرفه عنهم لعدم اعتذارهم بأعمالهم وعدم وثوقهم على استمرار حالهم(٢) ،

قال ابن عباس: يقولون ذلك في سجودهم وقيامهم.

فعذابها غراما أي لازما دائما غير مفارق ، ومنه سمي الغريم لملازمته. (٣)

هم يدعون ربهم بصرف عذاب النار عنهم، حتى يكونوا دائما في حذر وخوف مع الرجاء، وحيث يكون ذلك دليلا على صحة عقيدتهم وإيمانهم، وتطابق أعمالهم مع اعتقادهم، وعلة الدعاء على هذا النحو: أن عذاب جهنم ملازم للإنسان العاصي، ثقيل على النفس، وإن جهنم بئس

(١) – أخرجه ابن ماجه في سننه ١٤٠٤/٢ ، كتاب الزهد ، باب التوقي على العمل ، حديث : ٤١٩٨ ، ط: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي ، وحسنه الألباني .

(٢) – **ينظر :** تفسير المظهري ٤٧/٧ .

(٣) – **ينظر :** الجامع لأحكام القرآن ٧٢/١٣ .

المستقر أو المكان هو، وبئس موضع الإقامة هو أيضا. (١)

لا يصْفُ لأحد قدم في العبودية حتى تكون أفعاله عنده كلها رياء، وأحواله كلها دعاوى. فمن علامة من تولاه الله أن يشهد التقصير في إخلاصه، والغفلة في أذكاره، والنقصان في صدقه، والفتور في مجاهدته، وقلة المراعاة في فقره، فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية، ويزداد فقرًا إلى الله تعالى في فقره ويسره حتى يفنى عن كل ما دونه. ودلت الآية على مشروعية الدعاء مطلقًا، خصوصًا في أعقاب الصلوات، وهو مخ العبادة، فليدع المصلي منفردًا، وفي الجماعة، إمامًا كان أو مأمومًا. (٢)

الصفة الخامسة: التوسط في الإنفاق

قال تعالى (Ñ Ð Ï Î Í Ì Ë Ê É Ô Ó Ò) [الفرقان:٦٧]

إذا نظرنا إلى دين الإسلام نجده دين العدل والوسطية في جميع شؤون الحياة، وقد وجه رب العزة والجلال رسوله ومن ورائه أمته بقوله:

(9 8 7 6 5 4 3 2 1 0 / . : ;)

[الإسراء:٢٩]وهذا الاعتدال يكون في الإنفاق على الملذات المباحة، أما في

(١) – **ينظر :** التفسير الوسيط لوهبه الزحيلي ١٨١٢/٢ ، ط: دار الفكر – دمشق ، الطبعة : الأولى - ١٤٢٢ هـ .

(٢) – **ينظر :** تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للهرري ١١٠/٢٠ ، ط: دار طوق النجاة - بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .

الأمور المطلوبة شرعاً فلا يقال فيها سرف.

فلما ذكر أفعالهم وأقوالهم فيما بينهم وبين الخلق وقدّمه ، والخالق وأخرّه لأن وجوب الإنفاق يكون بعد ذلك ، لذا ذكر أحوالهم في أموالهم(١) ،

وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات ؛ ويتجه إليها في التربية والتشريع ، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال .

والمسلم - مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية المقيدة - ليس حرا في إنفاق أمواله الخاصة كما يشاء ، إنما هو مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير .

فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع ؛ والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية . والإسراف والتقتير يحدثان اختلالا في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي ، وحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب . ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق(٢).

فالشريعة لا تصادم الفطرة السوية فقد لبت حاجات الناس التي لابد لهم منها، وأباحت الانتفاع بالطيبات والتوسعة على النفس والأهل، بل والناس كذلك لكن من غير إسرافٍ ولا تبذير، قال الله تعالى: ( ) (2 1 0 / . - , + *

(١) – **ينظر :** نظم الدرر ٤٢٣/١٣ .

(٢) – **ينظر :** تفسير في ظلال القرآن ٢٥٧٨/٥ - بتصرف يسير .

[الأعراف: ٣١]

إن دعوتنا إلى الاقتصاد في المعيشة والنفقة ليست دعوة إلى تحريم ما أحل الله من الطيبات: (3 4 5 6 7 8 9 : ; < ? @ A B C D E F G H I) [الأعراف: ٣٢]؛ لكنها دعوة إلى التوسط والاعتدال الذي هو سمة هذه الأمة (: ; < = >) [البقرة:١٤٣]

إن الأفراد والدول الذين لا يجدون المال ويعيشون حياة الفقر والحاجة لا يحترمهم الآخرون. وإن من أعظم الوسائل لحفظ هذه النعمة – نعمة المال – الاقتصاد في النفقة والاعتدال في المعيشة. قال بعض العلماء: ما وقع تبذير في كثير إلا هدمه، ولا دخل تدبير في قليل إلا ثَمَّره و نمَّاه.

فالاعتدال في الإنفاق أي ترك الإسراف والتقتير ، وإن من شأن المؤمنين إذا أنفقوا على أنفسهم لم يكونوا مبذّرين في النفقة، فلا تزيد عن الحاجة ، ولا بخلاء مقترين، فيقصرون في أداء الحق والواجب، وإنما ينفقون أموالهم بنحو عدل وسط، بقدر الحاجة.

والقصد من هذه الصفة: هو جعل نفقة الطاعات في المباحات من غير إفراط ولا تفريط، فلا يسرف حتى لا يضيع أو يهدر ثروته في وقت قصير، ولا يقتّر فيضيع حقا آخر أو يهمل عياله وأهله، أو يجيعهم ويفرط في الشح والبخل، والحسن في ذلك: العدل، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، وبمدى قدرته أو جلده وصبره على الكسب، وخير الأمور

أوساطها، كما جاء في آية أخرى: (. / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ;) [الإسراء:٢٩]

أما النفقة في العبادة التي توهم غير المراد منها: فهي أمر قد حظرت الشريعة قليلة وكثيره، وكذلك التعدي على مال للآخرين [١].

وكما هو معلوم أن الإسلام دين العدل والوسطية في جميع شؤون الحياة، وقد وجه رب العزة والجلال رسوله ومن ورائه أمته وهذا الاعتدال يكون في الإنفاق على الملذات المباحة ، أما في الأمور المطلوبة شرعا فلا يقال فيها سرف، قال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سرف .

وقال إياس بن معاوية[٢]: ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف . وقالوا: لا سرف في الخير، ولا خير في السرف. [٣]

هم ليسوا بالمبذرين في إنفاقهم، فلا ينفقون فوق الحاجة، ولا ببخلاء على أنفسهم وأهليهم، فيقصّرون فيما يجب نحوهم، بل ينفقون عدلًا وسطًا، وخير الأمور أوسطها.

أولئك أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - كانوا لا يأكلون طعامًا للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثيابًا للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع، ويقوّيهم على عبادة ربهم، ومن اللباس ما

---

(١) – **ينظر :** التفسير الوسيط للزحيلي ١٨١٢/٢.

(٢) – **إياس بن معاوية :** هو إياس بن معاوية بن قرة المزني، أبو واثلة المتوفى :١٢٢ هـ ، قاضي البصرة، وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء. يضرب المثل بذكائه . **ينظر :** الأعلام ٣٣/٢ .

(٣) – **ينظر :** التفسير المنير لوهبه الزحيلي ١٠٨/١٩ ، ط: دار الفكر المعاصر - دمشق ، الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ - بتصرف يسير .

يستر عوراتهم، ويقيهم من الحرّ والبرد.

وقال عبد الملك بن مروان [١]

لعمر بن عبد العزيز [٢]حين زوجه ابنته فاطمة: ما نفقتك؟ قال عمر: الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية. وقال لابنه عاصم: يا بني كل في نصف بطنك، ولا تطرح ثوبًا حتى تستخلقه، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله تعالى في بطونهم، وعلى ظهورهم. قال عمر بن الخطاب: كفى سرفًا أن لا يشتهي شيئًا إلَّا اشتراه فأكله. [٣]

(١) – **عبد الملك بن مروان :** هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو الوليد المتوفى :٨٦ هـ ، من أعاظم الخلفاء ودهاتهم. نشأ في المدينة، فقيها واسع العلم، متعبدا، ناسكا. . **ينظر :** الأعلام ١٦٥/٤ .

(٢) – **عمر بن عبد العزيز :** هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص المتوفى :١٠١ هـ ، الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيها له بهم. وهو من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام. ولد ونشأ بالمدينة، وولي إمارتها للوليد. **ينظر :** الأعلام ٥٠/٥ .

(٣) – **ينظر :** تفسير حدائق الروح والريحان ١١٢/٢٠ .

الصفة السادسة: اجتناب الشرك بالله جل وعلا

قال تعالى (! " # $% & ') [الفرقان:٦٨]

لما ذكر ما تحلّوا به من أصول الطاعات ، بما لهم من العدل والإحسان بالأفعال والأقوال ، في الأبدان والأموال ، أتبعه ما تخلّوا عنه من أمهات المعاصي التي هي الفحشاء والمنكر(١) ،

وهنا قد يسأل سائل : أبعد كل هذه الصفات لعباد الرحمن ننفي عنهم هذه الصفة (" # $% & ') الفرقان:٦٨ ، وهم ما اتصفوا بالصفات السابقة إلا لأنهم مؤمنون بالإله الواحد سبحانه ؟ قالوا : هذه المسألة عقيدة وأساس لا بد للقرآن أن يكررها ، ويهتم بالتأكيد عليها(٢).

إذا تأملنا القرآن الكريم مليا نجده صرح بأن الذنوب جميعها تحت مشيئة الله تعالى إن لم يتب عنها المذنب، إن شاء غفرها وإن شاء عاقب عليها، إلا الشرك فلا تجاوز عن المشرك يقول جل وعلا: (V U T f e d c b ` _ ^] \ [Z Y X W i h g) [النساء:١١٦]

(١) – **ينظر :** نظم الدرر ٤٢٥/١٣ .

(٢) – **ينظر :** تفسير الشعراوي١٠٥١٤/١٧ .

فقد جاء عن ابن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ - أَوْ سُئِلَ - رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ، قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ» (١)

والتوحيد أمر اعتقادي وسلوكي:

أما الاعتقاديّ: فأن يؤمن بالله وحده لا شريك له، إلهاً لا يشركه في الذات ولا في صفاته غيره، لا يعتقد بألوهية أحد سواه،

أما الجانب السلوكي فهو أن لا يتصرف أي تصرف فيه عبادة لغير الله سبحانه وتعالى.

وتوحيد الله عزَّ وجل إذا ما تحقق في حياتنا توحيداً في الاعتقاد وتوحيداً في السلوك، سيرقى بنا إلى درجات عظيمة من القبول عند الله عزَّ وجل، وليس من السهل أن تطهر قلبك من أي شرك بحيث لا تخشى أحداً غير الله، ولا ترجو أحداً غير الله، ولا تخاف أحداً غير الله. وأن يكون توجهك في عبادتك دائما لله؛ عندما تتأمل هذا الكون وسيره، وعندما تتأمل نفسك ونظام حياتك وجسدك وخلايا هذا الجسد، وتنظر فيمن يدبر لك الأمر كله في هذا الكيان البشري الذي يتمثل فيما بين جنبيك، عندما تتأمل كل ذلك، وتدرك بكل بساطة أنه لا إله إلا الله، وأنه لا صانع ولا خالق ولا مدبر إلا الله، وعندما تدرك أنه لا خالق ولا مدبر ولا نافع ولا ضار إلا الله لن تشرك بالله غيره في سلوكك، فالشرك

(١) – أخرجه البخاري في صحيحه – كتاب الديات – باب – حديث : ٦٨٦١ ، ط: دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ .

في السلوك نتيجة لضعف الإيمان وضعف العقيدة بتوحيد الله عزَّ وجل.

فهم لا يعبدون مع الله إلها آخر فيشركون فى عبادتهم إياه، بل يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة. (١)

وإذا تأملنا الشرك نجده ثلاثة :

أولها: أن يعبد غيره تعالى.

والثاني: أن يطيع مخلوقًا بما يأمره من المعصية.

والثالث: أن يعمل لغير وجه الله تعالى. فالأول كفر، والآخران معصية.

وهذا يعني لا يرفعون حوائجهم إلى الأغيار، ولا يتوهمون منهم المسارّ والمضارّ، وأيضًا لا يشوبون أعمالهم بالرياء والسمعة، ولا يطلبون مع الله مطلوبًا، ولا يحبون معه محبوبًا، بل يطلبون الله من الله، ويحبونه(٢)

الصفة السابعة: اجتناب قتل النفس بغير حق

قال تعالى ( ) (* + , - . /)

[الفرقان:٦٨]

والنفس التي حرم الله هي النفس المؤمنة المطيعة لله جل وعلا التي لم تستوجب حداً يوجب القتل، كالردة عن الإسلام، أو كزنا المحصن، أو مفارقة الجماعة، وما أشبه ذلك .

فإذا كانت هذه النفس بريئة طاهرة تقية فلا يجوز لأحد أن يتعدى

(١) – **ينظر :** تفسير المراغي ٣٨/١٩ .

(٢) – **ينظر :** تفسير حدائق الروح والريحان ١١٢/٢٠ .

عليها بقتل، ومن تعدى بقتل فإن الله تعالى يقول: (d c
m l k j i h g f e
s r q p o n) [النساء: ٩٣] فقتل النفس أمر عظيم عند الله جل وعلا ،

فالإسلام دين العدل والاعتدال، دين السلم والمسالمة، دين المحبة والتقوى، والشريعة الإسلامية شديدة الحرص على توجيه سلوك الإنسان وأخلاقه، وحماية حياته من اي اعتداء، وتكفل عزته وكرامته.

جعل الاسلام للنفس الإنسانية مكانة محترمة، فمدح في كتابه الكريم إحياء النفس وذم قتلها فقال تعالى: ((* + , - . /
9 8 7 6 5 4 3 2 1 0
: ;) [المائدة:٣٢]

المسلم معصوم الدم والمال ، لا تُرفعُ عنه هذه العصمة إلاّ بإحدى ثلاث ؛ إذ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ((لا يَحلُّ دمُ امرىءٍ مسلم إلاّ بإحدى ثلاث : كَفَرَ بعدَ إسلامهِ ، أو زَنَى بعد إحصانهِ ، أو قَتَلَ نفساً بغير نفس)) [(١)]، وما عدا ذلك ، فحرمة المسلم أعظم عند الله من حرمة الكعبة ، بل من الدنيا أجمع .

وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ((والذي نفسي

(١) – أخرجه أحمد في مسنده ٤٩١/١ ، مسند عثمان بن عفان حديث : ٤٣٧ ، ط:مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، قال الشيخ= =شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا)) [١] وهذا الحديث وحده يكفي لبيان عظيم حرمة دم المسلم ، ثم تبصّر ماذا سيكون موقفك عند الله يوم القيامة إنْ أنت وقعت في دم حرام ، نسأل الله السلامة

فلم تعظم شريعة من الشرائع السماوية ولا قانون من القوانين الوضعية الدماء مثلما حرمتها الشريعة الإسلامية، حيث جعلت سفك الدماء من أكبر الكبائر وأوبق الموبقات التي يمكن أن يفعلها إنسان، وذلك لما في انتشارها من تفكيك لبناء المجتمعات المسلمة

ومن دلائل العناية بالدماء والتغليظ فيها في الشريعة الإسلامية أن ذِكْرها والتنويه بها وقع قبل أن تنفخ الروح في آدم -عليه السلام-، وقبل أن تجري دماؤه في عروقه؛ فالملائكة -عليهم السلام-، هم من أعلم الخلق بالله تعالى وبما يرضاه وما لا يرضاه من الأقوال والأفعال، ولما أخبرهم سبحانه وتعالى أنه جاعل في الأرض (+ , - . / 0 1 2) [البقرة:٣٠]، ولولا عظمة الدماء عند الله تعالى لما نوَّه الملائكة بذكرها من بين سائر وجوه الإفساد التي هي من الكثرة بما يعز على العد والحصر.

ولما خلق الله تعالى آدم، وجرت عليه المحنة والبلاء والتكليف، ثم أهبط إلى الأرض، وتناسل بنوه من صلبه كان أول ذنب عظيم وقع من بنيه: قتلَ أحدهم أخاه، في قصة عجيبة ذكرت في القرآن؛ لأهميتها، وأهمية ما تضمنته من تأريخ أول دمٍ سفك على الأرض ظلمًا وعدوانًا،

(١) – أخرجه النسائي في السنن الكبرى ٤١٦/٣ – كتاب المحاربة – باب تعظيم الدماء – حديث : ٣٤٣٤ ، ط:مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، وصححه الألباني .

وعقب ذكر هذه القصة العظيمة تأتي الآيات لتبين منزلة الدماء عند الله تعالى؛ حتى إن سافك دم واحد قد شُبِّه بمن سفك دم الناس جميعًا

- , + *) (' &% $ # " !)

7 6 5 4 3 2 1 0 / .

8 9 : ; <) [المائدة: ٣٢]ولسنا نعلم ذنبًا في الشريعة يكون مرتكبه في حق واحد من الناس كمن فعله في جميع الناس غير هذا الذنب العظيم؛ فما أعظم شأن الدماء عند الله تعالى!!

ونجد أيضا أن المسلم في سعة من دينه، وفي فسحة من ذنوبه التي هي دون القتل، حتى يباشر القتل ظلماً وعدوانًا، فيضيق عليه الأمر؛ لعظم شأن الدم؛ كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً" وفي رواية: "في فسحة من ذنبه" (١).

أول ما يُقضَى يوم القيامة بين العباد في الدماء ففي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ((أولُ ما يُحاسَبُ به العبدُ الصلاة ، وأولُ ما يُقضَى بينَ الناسِ الدماءُ)) (٢)وما ذلك إلا لعظم خطرها يوم القيامة فاستعد للموقف العظيم ، والسؤال الصعب الذي ما بعده إلا جنة أو نار .

وكل الذنوب يُرجَى معها العفو والصفح إلاّ الشرك ، ومظالم

(١) – أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٩– كتاب الديات – باب – حديث : ٦٨٦٢ .

(٢) – أخرجه ابن ماجة في سننه ٤٥٨/١ – كتاب إقامة الصلاة – باب أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة – حديث : ١٤٢٥ . وصححه الشيخ / شعيب الأرنؤوط .

العباد . ولا رَيبَ أنَّ سَفْكَ دماء المسلمين وهَتْكَ حرماتهم لَمِنْ أعظم المظالم في حق العباد

وحفظ الدين والأنفس وحماية الأعراض والحفاظ على العقل والنسل من مقاصد هذا الدين القويم، ومن الجوانب الرئيسية التي رعاها أيما رعاية، واعتنى بها غاية العناية، صيانة للأمة وحفاظًا على الأفراد والمجتمعات من أخطار الجرائم المدمرة، وعنوان صلاح أي أمة ودليل سعادتها واستقرارها إنما هو برعاية أبنائها لهذا الجانب العظيم، وهو حفظ الأنفس وحمايتها، فمقصود الشرع من الخَلْق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقولهم وأنسابهم وأموالهم.

فلا يقتلون نفسا بسبب من الأسباب إلّا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها، كما إذا قتل أحدا فيقتصّ به، أو زنى وهو محصن فيرجم، أو ارتدّ أو سعى في الأرض بالفساد فيقتل(١)،

فدم الإنسان محترم ولا يباح الاعتداء عليه إلا في الثلاث المتقدمة ، فالمؤمنون هم الذين لا يقتلون نفسا حرم الله قتلها إلا بحق، وصاحب الحق في قتل من ارتد أو قتل أو زنى هو الإمام، أي الحاكم. (٢)

الصفة الثامنة: الابتعاد عن الزنا ووسائله

قال تعالى (0 1 ا) [الفرقان:٦٨]

إذا نظرنا إلى الزنا نجده من أعظم الذنوب بعد الشرك بالله، فقد

(١) – **ينظر :** تفسير حدائق الروح والريحان ١١٣/٢٠ .

(٢) – **ينظر :** التفسير الواضح لمحمد محمود حجازي ٧٣٩/٢ ، ط: دار الجيل الجديد – بيروت ، الطبعة: العاشرة - ١٤١٣ هـ.

قرنه الله بالشرك، وقتل النفس، لما فيه من إضاعة الأنساب، وانتهاك الحرمات، وإشعال العداوة والبغضاء بين الناس، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه، أو ابنته، أو أخته، وفي ذلك خراب للعالم، ولهذا كان الزاني المحصن من الثلاثة الذين أحل الله دماءهم، وقد توعده النبي - صلى الله عليه وسلم - حين قال: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن[١]

وفي صحيح البخاري، في حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الطويل، وفيه: جاء جبريل وميكائيل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، وأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لغط وأصوات، قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا -أي صاحوا من شدة حره- فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الزناة، والزواني" .[٢]

والتحريم أيضا موافق للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، من الغَيْرة على العِرْض ، وبعض الحيوانات تغار على عرضها ، فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن ميمون الأودي [٣]قال : «رَأَيْتُ فِي الجَاهِلِيَّةِ قِرْدَةً اجْتَمَعَ عَلَيْهَا قِرَدَةٌ، قَدْ زَنَتْ، فَرَجَمُوهَا، فَرَجَمْتُهَا

(١) – أخرجه البخاري في صحيحه ١٦٤/٨– كتاب الحدود – باب إثم الزناة – حديث : ٦٨١٠.

(٢) – أخرجه البخاري في صحيحه ٤٤/٩– كتاب التعبير – باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح – حديث : ٧٠٤٧ .

(٣) – عمرو بن ميمون : هو عمرو بن ميمون الأودي، سمع معاذ بن جبل باليمن وبالشام وابن مسعود وعمر رضي الله عنهم، سمع منه أبو إسحاق وحصين، قال أبو نعيم: مات سنة أربع وسبعين، سكن الكوفة . ينظر : التاريخ الكبير للبخاري ٣٦٧/٦ ، ط: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن ، دون تاريخ .

مَعَهُمْ» (١)

يا إلهي انظروا معي إذا كان القرد يغار على عرضه ، ويستقبح الزنا ، فكيف لا يغار الإنسان على عرضه ؟

فأي رجل يقبل أن يجعل زوجته أو ابنته أو أمه أو أخته متاعاً للناس وسلعة مجانية ، فقد رضي لنفسه أن يترل عن مرتبة بعض الحيوانات .

قال ابن القيم – رحمه الله - :

"ولَّما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد ، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب ، وحماية الفروج ، وصيانة الحرمات ، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس ، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته ، وأخته ، وأمه ، وفي ذلك خراب العالم : كانت تلي مفسدة القتل في الكبَر ، ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم في سننه . (٢)

نظم الإسلام الغرائز لدى الفرد وهذبها، فلم يطلق لها العنان للإشباع، ولم يكبتها فيحرمها من نيل نصيبها من الاستمتاع، وإنما أشبعها بطريق منظم لتؤدي وظيفتها الإيجابية في الحياة . وعلى رأس هذه الغرائز غريزة الجنس فشرع النكاح وشرط له شروطا لضمان استمرار النسل البشري من غير اختلاط في الأنساب ليبقى المجتمع متماسك البنيان، سليما من الآفات والأمراض الناجمة من الفوضى الجنسية والانحرافات الخُلقية .

(١) – أخرجه البخاري في صحيحه ٤٤/٥– كتاب مناقب الأنصار – باب– حديث : ٣٨٤٩ .

(٢) – **ينظر :** الداء والدواء لابن القيم صـ ٣٤٥ ، ط: مجمع الفقه الإسلامي بجدة-الطبعة: الأولى ١٤٢٩هـ.

ولقد سمى الله سبحانه وتعالى عقد الزواج ميثاقا غليظا يقول تعالى:

; : 9 8 7 6 5 4)

< = > ?) [النساء: ٢١]ووضع للأعراض أمرا واقيا فمن تعرض لها بمقالة سوء فعليه أن يأتي بأربعة شهداء وإلا جلد على ظهره يقول عز من قائل (\ [^ _` a b c

(p o n m l k j i h g f e d

[النور: ٤]ومن تجاوز الحدود ووقع في الفاحشة، فإن كان بكرا جلد مائة جلدة، وإن كان محصنا رجم بالحجارة حتى الموت

وفي المقابل رغب الإسلام في الزواج ، واعتبره أهم وأقوى مشروع يتأسس عليه النظام الاجتماعي ، بالزواج تنشأ الأسرة وتقوى الروابط الاجتماعية ويتراحم الناس فيما بينهم ، وبالزواج يتناسل النوع البشري بطريقة تضمن ديمومة المسئولية الفردية والجماعية ، وبه تحفظ مكانة المرأة أما وبنتا وأختا وزوجا في الإطار الذي أراده الخالق سبحانه سنة جارية متبعة في عباده إلى يوم القيامة ، فدعا الشباب إلى الأخذ بالأسباب المادية لتحصيل تكاليف الزواج .

ومن تقدير الإسلام للزواج اعتبره شق الدين ؛ لما له من تأثير مباشر في حفظ الأنساب والأعراض ووقاية المجتمع من كثير من الأمراض النفسية والعضوية ويساهم الزواج بشكل فعال في حل المشكلات الاجتماعية والأخلاقية والأمنية.

والزواج يحول دون انتشار الأمراض التي تفتك بملايين الشباب في

مجتمعات تفشى فيها الشذوذ الجنسي والإباحية واللوطية والعهر .

وأمر الإسلام غير القادرين على الزواج بالاستعفاف والصبر، ويكون بالاشتغال بالصالحات من الأعمال وملازمة الذكر وقراءة القرآن ، وتجنب دوافع إثارة الغريزة كسماع الغنى وحضور مجالس اللهو والفجور ، ودعا إلى الإكثار من الصيام فجعله من أعظم وسائل الوقاية ، لما له من أثر فعال على النفس في كبح جماح الشهوات وتهدئة هيجان الغريزة الجنسية ،خاصة عند فئة الشباب، ريثما تتهيأ لهم أسباب الزواج؛ فيغنيهم الله من فضله.

ثم توعد سبحانه من يفعل مثل هذه الأفعال بشديد العقاب، ما ذكر من الثلاثة كما هو دأب الكفرة المذكورين؛ أي: فعل شيئًا من الأفعال الثلاثة: عبادة غير الله تعالى، والقتل، والزنا جزاء إثمه وعقوبته، والآثام كالوبال والنكال وزنًا ومعنى، يقال: أثمه يأثمه أثامًا جازاه على ذنبه وعاقبه عليه. (١)

وهذه الصفات الثلاث أمهات الكبائر، وعنوان الرذائل فمن يفعلها يلق أثاما وعذابا ونكالا ويضاعف له العذاب يوم القيامة أضعافا، الله أعلم بها، ويخلد فيه حالة كونه مهانا .

الصفة التاسعة: التوبـــــة

قال تعالى (J I H G F E D C B

W V U T S R Q P O M L K

(١) – **ينظر :** تفسير حدائق الروح والريحان ١١٣/٢٠ .

[Z Y X] \ [( ] [الفرقان:٧٠-٧١]

بعد أن أتم تهديد الفجار على هذه الأوزار أتبعه بترغيب الأبرار في التوبة والرجوع إلى حظيرة المتقين، فيفوزون بجنات النعيم

والتوبة من الذنب على حالتين :

الحالة الأولى: إذا كان الذنب بين العبد وبين ربه سبحانه؛ أي: إذا كانت المعصية بينك وبين ربك، ولا تتعلق بحق آدمي آخر، ففي هذه الحالة للتوبة ثلاثة شروط:

الشرط الأول: الإقلاع عن المعصية؛ وهو أن تقلع عن المعصية، وأن تكف عنها، فإن كنت تاركًا لواجب وجب عليك فعله، وإن كنت فاعلاً لمحرم وجب عليك تركه.

الشرط الثاني: الندم على فعلها؛ وهو أن تشعر بالحزن على فعلك للمعصية، وتتمنى أنك لم تفعلها.

الشرط الثالث: العزم على عدم الرجوع إلى ذلك الذنب؛ وهو أن تعزم بإرادة قوية في قلبك أن لا تعود أبدًا إلى تلك المعصية مستقبلاً. فهذه هي شروط التوبة إذا كانت المعصية بين العبد وبين ربه سبحانه وتعالى.

وأما الحالة الثانية: إذا كان الذنب بين آدمي وآدمي آخر؛ أن تكون المعصية بينك وبين عبد أو مسلم آخر، ففي هذه الحالة يجب أن يتوفر في التوبة أربعة شروط؛ الثلاثة التي ذكرناها سابقًا من إقلاع وندم وعزم على عدم العودة.

والشرط الرابع: أن يبرَأ التائب من حق صاحبه؛ ، فإن كنت أخذت مالاً أو نحوه رددته إلى صاحبه، وإن كانت غيبة استحللته منها، وإن كان حد قذف أو نحوه مكنته من نفسك أو طلبت عفوه، فإن فقد أحد الشروط في تلك الحالتين لم تصح التوبة.

وزاد بعض العلماء في شروط التوبة الإخلاص، أي: أن تكون توبة الرجل خالصة لله تعالى، وأن يقصد بها وجه الله رغبة في مغفرته وثوابه، وخوفًا من عذابه وعقابه، ولا تصح التوبة إذا كانت خوفًا من عصا سلطان، أو رغبة في جاه أو مال أو شيء من عرض الدنيا.

فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة، فالتوبة الرجوع من كل خلق مذموم، والدخول في كل خلق محمود، وهي توبة الخواص. وقال بعضهم: التوبة أن يتوب من كل شيء سوى الله تعالى، وهي توبة الأخص، فعلينا بالتوبة والاستغفار.

والمعنى: ومن تاب عن المعاصي التي فعلها، وندم على ما فرط منه، وزكّى نفسه بصالح الأعمال، فإنه يتوب إلى الله توبة نصوحًا مقبولة لديه، ماحية للعقاب، محصّلة لجزيل الثواب، إلى أنه ينير قلبه بنور من عنده يهديه إلى سواء السبيل، ويوفقه للخير، ويبعده عن الضير، وفي هذا تعميم لقبول التوبة من جميع المعاصي بعد أن ذكر قبولها من أمهاتها، نسأل الله تعالى توبة نصوحا ومن آثار رحمته فيضًا ونوالًا وفتوحًا. (١)

والخلاصة: في معنى قوله يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ قولان :

القول الأول: إنهم بدّلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات. قال

(١) – **ينظر :** تفسير حدائق الروح والريحان ١١٧/٢٠ – بتصرف يسير .

الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصا، وأبدلهم بالفجور إحصانا، وبالكفر إسلاما. أي أن التبديل يكون في الدنيا، وأثره في الآخرة.

والقول الثاني: إن تلك السيئات تنقلب بالتوبة النصوح نفسها حسنات، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم، واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار، أي أن التبديل يكون في الآخرة.

والظاهر القول الأول، وأن التوبة تجبّ ما قبلها، وتفتح للتائب صفحة جديدة، فيثاب على الأعمال الصالحة، ويعاقب على السيئات، كغيره من المؤمنين. (١)

التوبة من الذنوب ، والرجوع إلى علام الغيوب ، مبتدأ طريق السالكين ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام القاصدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، فمن أراد أن ينتظم في سلك المفلحين عليه أن يترل في مترلة التوبة في كل مرحلة من مراحل حياته وسيره إلى الله ، ولا يفارقها إلى الممات ، لأنها طريق النجاة وسبب الفلاح ، قال الله (Ï Î Í Ì Ë Ê É È Ç Æ Å Ä Ã Â Á À ¿ ¾ ½ ¼ » º ¹ ¸ ¶ µ ´ ³ ² ± °) [النور:٣١]

وإذا تأملنا هذه النداءات الربانية وأعدنا النظر فيها مرة ومرة نجدها نداءات متكررة في القرآن فيها الدعوة للمسارعة إلى التوبة والترغيب بها ، قال جل وعلا : (! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ A B C D E F G H I J K L M N O P Q R S T U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a b c d e f g h i j k l m n o p q r s t u v w x y z { | } ~) [آل عمران:١٣٣]

(١) – **ينظر :** تفسير مفاتيح الغيب للرازي ٤٨٥/٢٤ ، التفسير المنير ١١٠/١٩ .

(4 3 2 1 0 / . - , +

[التحريم: ٨] وقال جل وعلا: (¬ ® ¯ ° ± ² ³ ´

(» º ¹ ¸ ¶ µ

[الزمر:٥٤] ، وحكم سبحانه على المعرضين عن التوبة بالظلم فقال : (ä ã â á à ß Þ) [الحجرات:١١] فيا أيها المؤمن تب مع التائبين ولا تكن من الظالمين

من أجل ذلك رغبنا سبحانه بالتوبة في كتابه وعلى لسان رسوله غاية الترغيب ، مهما كانت الخطيئات ، ومهما بلغت السيئات ، فجعل التوبة سبب الفلاح وسبب تكفير السيئات ، ودخول الجنات ، وسبب لمحبته سبحانه ، وسبب لنزول الخيرات ، وارتفاع العقوبات .

الصفة العاشرة: الابتعاد عن شهادة الزور وأماكن المعاصي

قال تعالى (f e d c b a ` _ ^ g) [الفرقان:٧٢]

لما وصفهم بالصفات المتقدمة الدالة كلها على كمال أخلاقهم ، واستقامة أعمالهم في ظواهرهم وبواطنهم ، بإنبائها على قوة إيمانهم و صحة عملهم ، فكانوا أهل الحق المتصفين به في علمهم وعملهم ، القائمين عليه في جميع أحوالهم وصفهم هنا ببعدهم عن الباطل ومشاهده ومجانبتهم لأهله[١] ، فمن صفاتهم لا يحضرون الزور أي: القول والفعل

(١) – **ينظر** : مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير صـ ٢٢٩ .

المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله والجدال الباطل والغيبة والنميمة والسب والقذف والاستهزاء والغناء المحرم وشرب الخمر وفرش الحرير، والصور ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور فمن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه.

وهذا الوصف يصدق بمعنيين اثنين :

المعنى الأول : أنهم لا يشهدون مجالس السوء التي يغشاها البطالون المنحرفون ولا يزكونها بحضورهم .

والمعنى الثاني : أنهم لا يشهدون شهادة الزور ، فيحقوا الباطل ويبطلوا الحق بشهادتهم . والمراد بالزور : كل كذب وباطل.

و عن أبي بكرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» ثَلاَثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ - وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ - أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ (١)

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخم وجهه ، أي يسوده ، ويحلق رأسه ، ويطوف به في السوق، وهم يربأون بأنفسهم عن أن يشغلوها بالسفاسف ، مما ليس فيه صلاح دين ولا صلاح دنيا ، لا من الأفعال ولا من الأقوال ، وهذا معنى مرورهم به مر الكرام ، إذ يتكرمون عنه ، ويترفعون عن تضييع الوقت

(١) – أخرجه البخاري في صحيحه ١٧٢/٣ ، – كتاب الشهادات – باب ما قيل في شهادة الزور– حديث : ٣٦٥٣ .

فيه ، لتفاهته وعدم فائدته . واستعمال المرور مر الكرام بقصد الاختصار في القول المفيد ، والإيجاز في ذكر الشيء المحتاج إلى التفصيل من مسائل العلم ، استعمال في غير محله ، واقتباس مقلوب (١)

وشهادة الزور داخلة في قول الزور تدخل في هذه الآية بالأولوية ، وكذا الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية ككلام السفهاء ونحوهم يترهوا أنفسهم ويكرموها عن الخوض فيه، ورأوا أن الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفه، ونقص للإنسانية والمروءة، فربأوا بأنفسهم عنه.

وحاصل معنى الآية: أي والذين لا يؤدّون الشهادات الكاذبة، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم، ويكرمون أنفسهم عن سماع اللغو وما لا خير فيهِ كاللغو في القرآن، وشتم الرسول، والخوض فيما لا ينبغي (٢).

الصفة الحادية عشرة: قبول المواعظ

قال تعالى (p o n m l k j i h q r) [الفرقان:٧٣]

لما وصفهم فيما تقدم بإعراضهم عن الباطل ، ومجانبتهم لأهله ،

(١) – **ينظر** : التفسير المنير ١١١/١٩ .

(٢) – **ينظر :** تفسير حدائق الروح والريحان ١١٨/٢٠ .

وبعدهم عنه ، وصفهم هنا بإقبالهم على الحق ، وإكبابهم عليه ، متفهمين مستبصرين(١).

فمن شأن المؤمن أن يأخذ العظة والعبرة من كل شيء، فإذا سمع آيات الله تتلى، أو كره أحد الناصحين بآيات من كلام الله تعالى لم يردها عليه يفهم معناها مقدراً لما تهدي إليه، مقارنا حاله على ضوء هدايات الآيات، فإن كان في سلوكه أو فعله أو قوله خلل عدّله واستقام على الهداية.

وقد عبر بإذا لأن التذكير مما هو واقع محقق كالذي يسمع من القرآن في الصلاة ومن الخطب في الجمع .

و بنى الفعل للنائب لأن التذكير بالآيات يجب قبوله من أي مذكر كان بعد ما ذكر تعالى من صفات عباد الرحمن ما ذكر ، ذكر استماعهم للتذكير ، تنبيها على أن التذكير محتاج إليه في كل حال ، فإذا كان الموصوفون بتلك الصفات يحتاجون إليه فغيرهم أولى ، وذلك لأن الغفلة من طبع الإنسان ، ودوام الغفلة صدأ القلوب ، و صقالها هو التذكير .

وإذا تأملنا الآية الكريمة نجدها قد صورت حالة المؤمن بالقرآن الذي ينكب عليه ، ويتلقاه بالقبول ، ثم لا يتفهمه و لا يتدبره ، بحالة الأصم الأعمى في عدم انتفاعه بما انكب عليه ، تقبيحا لعدم التفهم والتدبر من المؤمن للآيات ، وتحذيرا منه وتنبيها على أن الانتفاع بالقرآن الذي تتفتح به البصائر ، وتتسع به المدارك ، وتتهذب به الأخلاق ، وتتزكى به النفوس ، وتتقوم به الأعمال ، وتستقيم به الأحوال إنما يكون بتفهمه ،

(١) – **ينظر** : مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير صـ ٢٣٣ .

وتدبره ، دون مجرد الانكباب عليه بلا تفهم ولا تدبر .[١]

فهم إذا وعظوا بالآيات المشتملة على الأحكام والمواعظ أكبوا على تلك الآيات حرصًا على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها، وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون راعية، وانتفعوا بها، لا كالذين يظهرون الحرص الشديد على استماعها، وهم كالصم والعميان كالمنافقين والكفرة ، فالمراد من النفي نفي الصمم والعمى، لا نفي الخرور وإن دخلت الأداة عليه، فالنفي متوجه إلى القيد الذي هو (p q r) [الفرقان: ٧٣]، لا إلى المقيد الذي هو الخرور الداخل عليه.

وفي هذا تعريض بما عليه الكفرة والمنافقون الذي إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به، ولم يتحولوا عما كانوا عليه، بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم وجهلهم وضلالهم، فكأنهم صم لا يسمعون، وعمي لا يبصرون.[٢]

من شأن المؤمن أن يأخذ العظة والعبرة من كل شيء، فإذا سمع آيات الله تتلى، أو ذكره أحد الناصحين بآيات من كلام الله تعالى لم يردها عليه؟ يفهم معناها مقدرا لما تهدي إليه، مقارنا حاله على ضوء هدايات الآيات، فإن كان في سلوكه أو فعله أو قوله خلل عدّله واستقام على الهداية.

كما أن آيات ربهم تشمل الآيات الكونية، التي يستدل من خلال

---

(١) – **ينظر** : المرجع السابق صـ ٢٣٥ .

(٢) – **ينظر :** تفسير حدائق الروح والريحان ١١٩/٢٠ .

التمعن فيها وأوضاعها وهيئاتها على النظام التام الذي يسود أجزاءه ومجراته ونجومه وكواكبه، ويستدل من خلال ذلك على الخالق المبدع، بخلاف الكافر الذي لا يهمه مما حوله إلا ما يوفر له اللذة الفانية والمتعة الدنيوية العابرة، فهو أصم وأعمى عن هدايات تلك الآيات ما كان منها وحيا، وما كان آية مرئية أو مسموعة مما يحيط به من حوله. (١)

الصفة الثانية عشرة: الدعاء بصلاح الأزواج والذرية

قال تعالى (s t u v w x y z { | } ~ • i) [الفرقان:٧٤]

لما وصفهم في الآيات المتقدمة ، بما دل على أنهم أهل الخير وكمال أنفسهم . وصفهم في هذه بما دل على محبتهم الخير والكمال لغيرهم من قرابتهم : أزواجهم ، وذريتهم ، ومن سواهم ، وقدم الأزواج على الذرية لأنهم ألصق ولأنهم الأصل . (٢)

وإن من أصول العبادة الابتهال إلى الله جل وعلا بالدعاء والالتجاء إليه في كل شيء، والدعاء مطلوب في أمور الدنيا كما هو مطلوب في أمور الآخرة، ومما يجمع به خيري الدنيا والآخرة الذرية الصالحة، فبهم تقرُ الأعين في الحياة الدنيا، وهم استمرار لعمل المرء بعد مماته وانقطاع عمله.

وهذا النص السامي يدل على أن أخلاق عباده أن يطلبوا الولد تقيا مؤمنا صادقا في إيمانه لا أن يطلبوا النعم ؛ لأن عمارة هذا الوجود بالولد ، ولذا طلبوا هبته ، و لم يطلبوا الحرمان

(١) – **ينظر :** موسوعة التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم ٣٢٣/٥.
(٢) – **ينظر** : مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير صـ ٢٣٥ .

كان طلب عباد الله الصالحين ، أن تكون لهم أعقاب صالحة ، عبروا عنها في دعوتهم بقوله (} |) [الفرقان: ٧٤] القرة من القرار وهو الاستقرار والثبات ، ويقول الأصفهاني في مفرداته : إن الأصل فيه أنه من القر بضم الراء وهو البرد ، لأن العين في حال تستقر ، وتهدأ ، إذ كانوا يرهبون الحر ، لأنه عندهم يكون شديدا ، وقالوا برد المتقين وغيرهم يقول حُرار الإيمان ، والمفهوم من قرة العين أن تكون مطمئنة بذكر الله وأن يكونوا في سكينة الإيمان ، وقرار العين مظهر من مظاهر سكون النفس ، واطمئنان الفؤاد . (١)

فهم يبتهلون في دعائهم بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل؛ أي: اجعل لنا ما يحصل به سرور أعين من أزواجنا وأولادنا بأن نراهم صالحين مطيعين لله ، فليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده يطيعون الله تعالى.

والذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له، وصادق الإيمان إذا رأى أهله قد شاركوه في الطاعة قرت بهم عينه، وسر قلبه، وتوقع نفعهم له في الدنيا حيًا وميتًا، وكانوا من اللاحقين به في الآخرة، ويسألون أيضًا أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم في إقامة مراسم الدين بما يفيض عليهم من واسع العلم، وبما يوفقهم إليه من صالح العمل(٢)

وبذلك أحبوا أن تتصل عبادتهم بعبادة زوجاتهم وذرياتهم، وأن

---

(١) – **ينظر** : زهرة التفاسير لأبي زهرة ٥٣٢٤/١٠ ، ط: دار الفكر العربي-دون تاريخ ، المفردات في غريب القرآن صـ ٦٢٢ .

(٢) – **ينظر :** تفسير حدائق الروح والريحان ١٢٠/٢٠ .

يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع فهم دعاة خير وبر، وذلك أكثر ثوابا، وأحسن مآبا.

جزاء عباد الرحمن

قال تعالى (¢ £ ¤ ¥ ¦ § ¨

© ª « ¬ ® ¯ ° ± ² ³)

[الفرقان:٧٥-٧٦]

لما بين سبحانه صفات المتقين المخلصين ذكر إحسانه إليهم فالموصوفون بالصفات السابقة ، والمستجمعون لتلك الخصال الفاضلة يثابون أعلى منازل الجنة، والجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة .

أولئك المتصفون بصفات الكمال، الموسومون بفضائل الأخلاق والآداب، يجزون المنازل الرفيعة والدرجات العالية بصبرهم على فعل الطاعات، واجتنابهم للمنكرات، ويبتدرون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام(١)

جمع بين التحية والسلام مع أنهما بمعنى واحد لقوله تعالى: (! " # $ %) [الأحزاب: ٤٤] ؛ لأن المراد هنا بالتحية سلام بعضهم على بعض، أو سلام الملائكة عليهم، وبالسلام سلام الله عليهم لقوله تعالى: (8 9 : ; < =) [يس:٥٨]،أو المراد بالتحية إكرام الله لهم بالهدايا والتحف، وبالسلام سلامه عليهم بالقول، ولو سلم

(١) – **ينظر :** تفسير حدائق الروح والريحان ١٢٢/٢٠ .

أنهما بمعنى واحد لساغ الجمع بينهما لاختلافهما لفظًا[١]

ويلاحظ أن عرض صفات المؤمنين، الذين استحقوا، أن يضيفهم الله سبحانه وتعالى إليه، وأن يتزلهم منازل رحمته، وأن يكونوا عباد الرحمن- يلاحظ أن هذه الصفات :

لم تجيء مرتبة ترتيبا تصاعديا أو تنازليا.. وذلك لغاية قصد إليها القرآن

وهي أن حالهم مع الناس : تواضع، وتعفف عن السّفه والفحش

« ª © ¨ § ¦ ¥ ¤ £ ¢)

¬ ® ¯) [الفرقان:٦٣]

وحالهم مع الله : يقطعون الليل عبادة وتسبيحا لله، فيما بينهم وبين خالقهم (° ± ² ³ ´ µ)

[الفرقان:٦٤]

فالصفتان، تمثلان صورة كريمة للإنسان، الذي رضى عنه ربه، ورضى عنه الناس.. وتلك غاية ما يمكن أن يدركه أحسن الناس، وأكمل الناس..

ثم تأتي صفة خاصة بهم: إذ يطلبون لأنفسهم النّجاة من النّار، والخلاص من عذاب جهنم ، فقد أدّوا أولا حقّ الله عندهم لعباده، ثم أدّوا حقه لذاته.. ثم طلبوا من الله ما هو مطلوب لهم..! (¶

(١) – **ينظر :** فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن للشيخ / زكريا الأنصاري صـ ٤٠٦ ، ط: دار القرآن الكريم - بيروت ،الطبعة: الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

Ä Ã Â Á À ¿ | ½ ¼ » º 1 ¸

È Ç Æ Å) [الفرقان:٦٥-٦٦]وهذه الصفات الثلاث، صفات وجوب أي صفات عاملة، يقوم عليها سلوكهم.

فالإنسان يحتاج إلى أن يرجع البصر كرة أخرى إلى هذه الآيات، وإلى سلاسة نظمها، وتدفّق سلسالها، وروعة بيانها، ثم استروح أنسام هذا الإعجاز الذي يطلع عليك، من هذا المنطق المحكم، الذي يستولى بسلطانه على كل نفس، وينفذ بقدرته إلى كل قلب..

فإنك إن فعلت- وخير لك أن تفعل- رجعت وملء إهابك خشوع وولاء، لآيات الله، ولكلمات الله، وكنت في هذا الموكب الكريم، الذي ينتظم عباد الرحمن، الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا [١].

(١) – **ينظر :** التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٦٦/١٠ ، ط: دار الفكر العربي -دون تاريخ.

الخاتمة

وبعد معايشتي لهذا البحث قلبا وقالبا ، وتجولي بين صفات عباد الرحمن توصلت إلى أهم النتائج التالية :

١- هذه أخلاق عباد الرحمن التي وعدهم ربهم عليها الدرجات العلى في الجنة، بسبب صبرهم على هذه الأخلاق الكريمة وأيضا صبرهم على ما يلاقونه من الأذى والمصائب بسبب عقيدتهم السليمة وسلوكهم المتميز .

٢- إنهم يجزون على ذلك الغرف العالية يكرمون بالتحية والدعاء بالسلامة والإقامة الدائمة في نعيم الجنة الدائم الذي لا ينقطع والأمن من الزوال.

٣- إن هذه الصفوة من عباد الرحمن تشمل المؤمنين الصادقين إلى يوم القيامة - ويدخل فيهم صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دخولا أوليا.

٤- المناهج التربوية الصحيحة تنتج أناسا ربانيين يتصفون بالكمالات الخُلقية، والسلوك المستقيم في جميع تصرفاتهم ومعاملاتهم مع خالقهم ومع أنفسهم ومع غيرهم من الناس .

٥- تأسيس القرآن الكريم القضاء على الأحقاد والأضغان في المجتمع بقاعدة سامية ألا وهي رد السيئة بالحسنة ؛ وهذا يعتبر علاجا لأدواء المجتمع التي عجز الكثير عن علاجها .

٦- التوبة إلى الله عز وجل سبب الفلاح والنجاح ، وتكفير السيئات ودخول الجنات ، ونزول الخيرات ، وارتفاع العقوبات .

وبعد ،

فهذا هو جهدي المتواضع الذي أساله – سبحانه – أن يبارك فيه وأن

ينفع به.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فهرس المصادر والمراجع

* الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي،ط: دار الجيل، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م
* أسد الغابة في معرفة الصحابة لعلي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، ط: دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٩٩٤ م
* الأعلام لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي ، ط:دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة عشر ٢٠٠٢ م .
* بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى ، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٩٦ م .
* البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني ، ط: مركز المخطوطات والتراث – الكويت ، الطبعة الأولى، ١٤١٤ه-١٩٩٤م .
* فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن للشيخ / زكريا الأنصاري ، ط: دار القرآن الكريم - بيروت ،الطبعة الأولى ١٤٠٣ ه - ١٩٨٣ م .
* التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ، ط: الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤م .
* تفسير البحر المحيط ل محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ط: دار الفكر – بيروت ، ١٤٢٠ ه
* تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ط: دار الكتب العلمية بيروت- الطبعة الأولى - ١٤٢٢ ه- ٢٠٠١ م .
* تفسير الشعراوي لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم ١٩٩٧ م .
* تفسير القرآن العظيم لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، ط: دار طيبة للنشر ، الطبعة الثانية ١٤٢٠ه - ١٩٩٩ م.

* التفسـير القرآنـي للقـرآن لعبـد الكـريم الخطيـب ، ط: دار الفكـر العربي ، دون تاريخ .
* تفسير المحرر الوجيز لمحمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمـام بـن عطيـة الأندلسـي، ط: دار الكتـب العلميـة – بيـروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ ه .
* تفسير المراغـي لأحمـد المراغـي ، ط: مكتبـة ومطبعـة مصـطفى البابى الحلبي – مصر ، الطبعة الأولى ١٣٦٥ ه - ١٩٤٦ م .
* تفسير المظهري لمحمد ثنـاء الله المظهري، ط:مكتبـة الرشـدية – الباكستان ، ١٤١٢ ه.
* التفسير المنير لوهبه الزحيلي ، ط: دار الفكر المعاصر - دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤١٨ ه.
* تفسـير النكـت والعيـون للمـاوردي ، ط: دار الكتـب العلميـة – بيروت ، دون تاريخ .
* التفسير الواضح لمحمد محمود حجـازي ، ط: دار الجيل الجديد – بيروت ، الطبعة العاشرة - ١٤١٣ ه
* التفسير الوسيط لوهبه الزحيلي ، ط: دار الفكر – دمشق ، الطبعة الأولى - ١٤٢٢ ه .
* تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للهرري ، ط :دار طـوق النجـاة - بيـروت - الطبعـة الأولـى، ١٤٢١ ه - ٢٠٠١ م.
* تفسـير روح المعـاني فـي تفسـير القـرآن العظـيم والسـبع المثـاني لشـهاب الـدين محمـود بـن عبـد الله الحسـيني الآلوسـي ، ط: دار الكتب العلمية – بيروت - الطبعة الأولى، ١٤١٥ ه .
* تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب ، ط: دار الشروق – بيروت ، الطبعة السابعة عشر - ١٤١٢ ه .
* تفسـير محاسـن التأويـل للقاسـمي ، ط: دار الكتـب العلميـه – بيروت ، الطبعة الأولى - ١٤١٨ ه.
* تفسـير مـدارك التنزيـل وحقـائق التأويـل للنسـفي ، ط: دار الكلـم الطيب- بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م .

* تفسير مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي ، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة الثالثة - ١٤٢٠ ه.
* التنوير شرح الجامع الصغير لمحمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين ، ط: مكتبة دار السلام، الرياض ، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م
* الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي ، ط: دار الكتب المصرية – القاهرة ، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ه - ١٩٦٤ م .
* الداء والدواء لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية،ط: مجمع الفقه الإسلامي بجدة-الطبعة الأولى ١٤٢٩ه .
* زهرة التفاسير لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، ط: دار الفكر العربي – دون تاريخ .
* مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير لابن باديس ، ط: دار الكتب العلمية – بيروت - الطبعة الأولى، ١٤١٦ ه .
* مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي لأحمد قشب ، ط: دار الرشيد ، الطبعة الثالثة – ١٩٨٥ م .
* مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي ، ط: عالم الكتب ، الطبعة : الثالثة ١٩٨٣م.
* مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ، ط: مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى، ١٤٢١ ه - ٢٠٠١ م.
* موسوعة التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم ، ط: كلية الدراسات العليا – جامعة الشارقة ، الطبعة الأولى ٢٠١٠ م .
* الموسوعة القرآنية المتخصصة لجعفر شرف الدين ، ط: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت ، الطبعة الأولى - ١٤٢٠ ه.
* نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط بن علي بن أبي بكر البقاعي – ط: دار

الكتاب الإسلامي - القاهرة . دون تاريخ .

فهرس موضوعات البحث

المقدمة ٢٦٢

المبحث الأول: التعريف بالسورة ٢٦٧

المطلب الأول: اسمها وسر التسمية ٢٦٧
المطلب الثاني: عدد آياتها وكلماتها وحروفها ٢٦٨
المطلب الثالث: ترتيب السورة حسب النزول وحسب المصحف الشريف ٢٦٩
المطلب الرابع: سورة الفرقان هل هي مكية أو مدنية ؟ ٢٦٩

المطلب الخامس: مقصود السورة الكريمة ٢٦٩
المطلب السادس: المناسبات في السورة ٢٧٠
المطلب السابع: محور سورة الفرقان ٢٧٥

المبحث الثاني: صفات عباد الرحمن ٢٧٦

تمهيد ٢٧٦

الصفة الأولى: التواضع ٢٧٨

الصفة الثانية: الحلم ٢٨١

الصفة الثالثة: قيام الليل ٢٨٤

الصفة الرابعة: الخوف من عذاب الله ٢٩٠

الصفة الخامسة: التوسط في الإنفاق ٢٩٣

الصفة السادسة: اجتناب الشرك بالله جل وعلا ٢٩٨

الصفة السابعة: اجتناب قتل النفس بغير حق ٣٠٠

الصفة الثامنة: الابتعاد عن الزنا ووسائله ٣٠٤

الصفة التاسعة: التوبة ٣٠٨

الصفة العاشرة: الابتعاد عن شهادة الزور وأماكن المعاصي ٣١٢

الصفة الحادية عشرة: قبول المواعظ ٣١٤

الصفة الثانية عشرة: الدعاء بصلاح الأزواج والذرية ٣١٧

جزاء عباد الرحمن ٣١٩

الخاتمة ٣٢٢

فهرس المصادر والمراجع ٣٢٤

فهرس موضوعات البحث ٣٢٨